جدلية الأصول المعمارية لعنصر المحراب في العمارة الإسلامية

توامة نعناعة جامعة سطيف

الملخص:

يتناول هذا البحث باختصار واحدة من أهم الإشكاليات التي تطرح في الدراسات الأثرية المتعلقة بالآثار الإسلامية وهو: الأصول المعمارية للمحراب في العمارة الإسلامية، حيث عرف هذا الموضوع منذ فترة طويلة انقسامات حادة بين من يرى بأن هذا العنصر جاء نتيجة مباشرة لتأثر المسلمين بما هو موجود في الكنائس المسيحية وبين من يعارض بشدة هذا الرأي ويرى بأن المحراب هو إبداع إسلامي خالص جاء ليلبي حاجيات المسلمين عند ممارستهم لواحدة من أهم شعائرهم داخل المساجد وهي الصلاة، وإن كنا نلاحظ اختلاف كبير حتى بين أفراد هذا الرأي الأخير عند نقاشهم حول الوظيفة التي أريد للمحراب أن يؤديها في المسجد.

ونتتبع هذا النقاش بداية من التعريف اللغوي للكلمة في العصور الجاهلية ثم في القرآن الكريم وكتب السيرة والحديث والتي لم يكن في أي منها معنى لكلمة "محراب" مطابق لما هو معروف عندنا اليوم من الناحية الاصطلاحية، وفي صلب النقاش حول الأصول المعمارية لهذا العنصر يبرز رأي مجموعة من المستشرقين الذين يقدمون مقارنات معمارية بين عنصري المحراب في المسجد وفي الكنيسة ومعتمدين أيضا على مجموعة من الروايات التاريخية وما جاء في كتب السيرة والفقه خالصين إلى أن المحراب قد جاء نتيجة لتأثر المسلمين بالكنائس المسيحية، وردا على هذا الرأي نبرز أراء باحثين آخرين بما فيهم مستشرقين تعارض هذا الطرح وتسعى لتقديم الأدلة الأثرية والعلمية الكافية لنفيه ولإثبات أن هذا العنصر هو ابتكار إسلامي خالص.

الكلمات الدالة :

الوظيفة Fonction　　محراب Mihrab :

عمارة Architecture　　اسلامية Islamic

العنصر Elément　　الاصول المعماريةArchitectural Assets

مقدمة:

إن الدارس لآثار العمارة الإسلامية وبالتحديد عمارة المسجد ليجد نفسه في كل مرة أمام إشكالية تتكرر كلما ذكر أحد عناصره المعمارية على غرار عنصر المحراب موضوع هذا البحث والتي تمتد وصولا إلى مخطط المسجد عامة، وتتعلق هذه الإشكالية أساسا بالأصول المعمارية لهذا العنصر، والمقصود بذلك النماذج أو الطرز المعمارية الأجنبية أو المحلية التي تكون قد أثرت أو قلدت تماما من قبل المسلمين الواضعين الأوائل للمحراب المجوف في العمارة الإسلامية إن لم يكن وجوده في الأصل نتيجة لإبداع وابتكار إسلامي صرف، وبالنظر لتشعب الموضوع وصعوبة وضع حد للاختلاف فيه فقد تحول إلى حقل جدال بين مختلف الدارسين لآثار العمارة الإسلامية، وبين الموضوعية والمغالات نجد أن مجموعة من المستشرقين ودونما الاعتماد على أدلة ملموسة وموضوعية من تلك التي تستدعيها أي دراسة أثرية علمية ينسبون المحراب المجوف إلى أصول أجنبية غير إسلامية وفي الغالب مسيحية، وحتى بين أعضاء الفريق الذي يرى بأصالة هذه العنصر المعماري في كونه إبداع إسلامي يبرز الخلاف في تحديد تاريخ ظهوره ومكان ذلك الظهور وعلى يد من كان.

ويتناول هذا البحث المختصر النظري الموضوع عبر الخوض في طرح ومناقشة مختلف الآراء التي تحدثت عن عنصر المحراب، ويتم ذلك من خلال عرض أهم الآراء التي حرصنا على أن تكون لأصحاب أهم الأعمال الصبرية الأثرية والمعمارية على غرار كل من فكري وكريزول وشافعي وأيضا لأهم مؤرخي الفن الإسلامي، حيث نسجل هنا عدم وجود دراسات أثرية حديثة وهو ما يجعلنا نعتمد على مراجع قديمة نوعا ما، ويدور البحث حول تساؤل مفاده: **ما مدى أصالة عنصر المحراب في العمارة الإسلامية من الناحية الشكلية والوظيفية؟** أي أننا سنحاول التعرف ما إذا كان المحراب من حيث شكله أتى متأثرا بعناصر معمارية سابقة للإسلام أم أنه كان ابتكار إسلامي للتماشي واحتياجات عملية معينة، ثم هل اكتسب المحراب دور جمالي أو رمزي؟ وهل كان هذا الاكتساب متأثرا بعقائد أخرى أو أنه جاء في إطار تصور إسلامي؟

وانطلاقا مما سبق فقد أتى بحثنا هذا على محاور تهدف كلها إلى مناقشة وإثبات أو نفي الآراء المتعلقة بالأصول المعمارية للمحراب والتي تناقش على مستويات عدة بغية إبراز كل الآراء والأدلة والنقائض الموجودة كما سيتضح خلال هذا العرض الموجز، وهنا نشير إلى أن هذه الدراسة نظرية بحتة تقوم على رصد وإعادة طرح لمختلف ما جاء في الموضوع عن أهم دارسيه، بحيث ستطرح هذه الآراء بصورة كاملة وفي مرمى نظر واحد مما سيسمح بإعادة قراءة وفهم وربما استنتاج لما جاء عن مختلف الأبحاث في هذا الإطار ومن ثمة الوصول إلى رأي أكثر قربا للصحة.

أولا: تعريف المحراب:

يطرح تعريف المحراب من الناحيتين اللغوية والاصطلاحية العديد من المفاهيم، والتي يرتبط تحديدها ارتباطا وثيقا بفهم الموضوع، فهو يعطينا توجيها حول الأصول التاريخية لنشأة هذا العنصر المعماري وظهوره الأول في العمارة الإسلامية، وكل هذه الأمور كانت محلا خصبا للنقاش وتضارب الآراء، وعلى هذا سنحاول طرح العدد الممكن من التعريفات والآراء المتعلقة بالموضوع، والتي نرى أنها أكثر موضوعية وذات أهداف علمية بحتة، سواء من حيث الطرح المقدم أو من حيث الشخصية العلمية صاحبته، لما لها من ذيع ومصداقية في مجال الأبحاث الأثرية المعمارية أو الفنية.

1ـ لغة:

في محاولة لإعطاء معاني أكثر حصرا ودقّة للكلمة، وكذلك تتبع الأصول التاريخية لها والعنصر المعماري المعني بها فقد شكّلت مواضيع بحوث مطولة من قبل علماء اللغات السامية، والرأي الراجح عند هؤلاء أن اللّفظ من أصول حميرية، أي من اللّهجات العربية الجنوبية، وقد دخل إلى اليمن من الحبشة مع الديانة النصرانية على صورة "مكراب""mikrab"، تحريفا عن الأصل الحبشي "مكوراب" "mekurab"، والذي يعني الكنيسة أو المعبد أو الحنية حيث يوضع تمثال القدّيس، ومنه استعملت اللفظة عند النصارى للدلالة على الحنية بالكنيسة[i]، وبينت أيضا جل البحوث على الكتابات النقشية عن تعدد معاني الكلمة بين فعل حارب أو المحاربة في معركة، وعمل للتقرب من الآلهة أو مكان للإعتكاف، كما عنت مكان الجلوس في بهو القصر، القصر كله أو جزء منه فيما رجّح علماء النقوش اليمنية أنها عنت عملية الزخرفة والتزيين في مختلف المباني[ii].

بصورة عامة لا يشك معظم علماء اللغات في الأصل العربي لكلمة محراب التي تكرر استعمالها في الأدب الجاهلي، أين حملت عديد المعاني (قصر، كوة داخل غرفة، شرفة، مقصورة، قاعة اجتماع، ولم يفصل إن كانت قد عنت قصرا كاملا أو جزء منه خاص بالملك أو الأمير...) حيث أكثرها إجماعا تلك التي تعطي لمعنى الكلمة الأساسي بأنه المكان الخاص أو الأكثر علوا في قصر أو غرفة[iii]، إذ ارتبط معناها بالسمو والرفعة والشرف للمكان والإنسان والحيوان لكنها لم ترد بالمعنى المسجدي المعروف، ومنها ما جاء في قول وضّاح اليمن "**ربّة محراب إذا جئتها / لم ألقها أو أرتقي سلّما**"، وهنا بمعنى الغرفة العالية، وقال إمرؤ القيس "**كفزلان رمل في محاريب أقوال**": وهنا أيضا بمعنى الغرفة العالية، وعن الأعشى "**أو دمية صوّر محرابها / أو درّة شيعت إلى تاجر**": بمعنى القصر، وفي ديوان عدي بن زيد العبادي "**كدمى من العاج في المحاريب أوكار**": بمعنى التجاويف التي توضع فيها التماثيل و التحف بالمعابد و القصور، وقال المخبل السعدي "**كعقيلة الدر استضاء بها / محراب عرش عزيز العجم**": والمعنى هنا مكان جلوس بني إسرائيل في كنيسهم لبحث أمور الحرب[iv].

بعد ظهور الإسلام ارتبطت الكلمة في أغلب الأحيان بالموضع المقدس والأرفع، ومنه اتخذت للتعبير عن الموضع الذي يقف فيه الإمام ليؤم المصلين، وقد شمل تعدد معاني اللفظ القرآن الكريم، حيث وردت بمعاني مختلفة في صيغة الفرد أربع مرات وجمعا مرّة واحدة، فلم يكن المعنى هنا أيضا مرتبطا بالمسجد كما شاع لاحقا[v]، فقال تعالى: ﴿**وَهَلْ أَتَاكَ نَبَؤُ الخَصْمِ إِذْ تَسَوَرُّوا المِحْرَابَ**﴾**(سورة ص، الآية 21)**، بمعنى مقدم وأشرف موضع في كل بيت و مجلس، وقال تعالى أيضا: ﴿**وَيَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَحَارِيب وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ...**﴾**(سورة سبأ، الآية 23)**، بمعنى أن الجن يعملون لسليمان ما يشاء من قصور ومساكن وبنيان دونها وقال جلّ جلاله ﴿**كُلَ مَا دَخَلَ عَلَيهَا زَكَرِيَا المِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا**﴾**(سورة آل عمران، الآية 37)** حيث قد يعني المحراب هنا قاعة إستقبال أو بيتا، ونجد أيضا في قوله جلّ جلاله: ﴿**فَنَادَتْهُ المَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِي فِي المِحْرَاب...**﴾**(سورة آل عمران، الآية 39)**، بمعنى المسجد أو الأماكن التي يجتمع فيها بني إسرائيل للصلاة، وقال تعالى: ﴿**فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ المِحْرَابِ فَأَوحَى إِلَيهِمْ أَنْ سَبِحُوا بُكْرَة وعَشِيَا**﴾**(سورة مريم، الآية 11)**، حيث جاءت بالمعنى السابق نفسه[vi].

وفي كتب السنة لم يرد في أي منها لفظ محراب ما عدا ما نسب من أحاديث[vii] بأنّ النبي صلى الله عليه وسلّم بعث عروة بن مسعود رضي الله عنه إلى قومه بالطائف، فأتاهم ودخل محرابا له فأشرف عليهم عند الفجر ثم أذّن للصلاة، وهنا يدل على أنه غرفة يرتقى إليها[viii]، فيما تكررت الكلمة في كتب التفسير والحديث كلما كانت هناك إشارة إلى مكان صلاة النبي صلى الله عليه وسلّم بمسجده في المدينة المنورة، أو المكان المخصص للإمام في نفس المسجد[ix].

كما يصعب حصر التعريفات التي تطرحها القواميس العربية الأكثر اعتمادا نذكر منها ما جاء عن ابن منظور "**محراب شديد الحرب وقيل محراب صاحب حرب**[x]"، وإن كان هذا بعيد عن المعنى الاصطلاحي المعروف فالأقرب له ما جاء عنه في أنّ المحراب هو المكان الذي ينفرد فيه الملك ويتباعد عن الناس، وقيل أن المحاريب هي صدور المجالس، ومنه سمي محراب المسجد، والمحراب قبلة المسجد لإنفراد الإمام فيه وبعده عن الناس[xi]، وجاء عنه عن الأصمعي عن أبي عمرو ابن العلاء أنه قال "**دخلت محرابا من محاريب حمير فنفخ في وجهي مسك**"، حيث المقصود به هنا القصر، وعن الإمام أبي حنيفة عن أبي عبيدة "**المحراب أكرم مجالس الملوك وسيدها ومقدمها وأشرفها**[xii]"، وقد قدّم لنا تاج العروس للزبيدي محب الدين مجموعة أخرى من التعاريف منها "**لفظة محراب أخذت من المصدر محاربة، لأن المصلي عند صلاته يحارب الشيطان ويحارب نفسه بإحضاره قلبه، والمحاريب أيضا هي صدور المجالس، وصدر البيت هو أكرم موضع فيه**[xiii]"، والمرجّح أن اللّفظ لم يستعمل لدى المسلمين بمعناه الحالي إلا بعد استقرار الفتوحات الإسلامية، وعلى الأغلب أن يكون ذلك أيام

الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك (88-91هـ/707-710م) عندما أمر بتجديد المسجد النبوي الشريف[xiv].

2-إصطلاحا:

بالنسبة إلى المسجد المحراب مقام الإمام وموضع انفراده[xv]، وهو عبارة عن عنصر معماري في المسجد على هيأة كوة أو تجويف مقعر في الحائط المقابل لمكة المكرمة، أي جدار القبلة[xvi]، وغالبا ما يكون غنيا من الناحية الزخرفية[xvii]، حيث أن هذا التجويف في جدار المسجد المواجه مباشرة للقبلة الأكثر أو الأقل زخرفة وإتقانا يصلح لأن يميز الجهة التي يجب على المصلين على اختلاف مذاهبهم استقبالها[xviii]، واستعمل هذا اللفظ للاصطلاح على أشرف مكان في المسجد وما يقابل هذا الموضع الذي كان يصلي فيه الرسول صلى الله عليه وسلّم، والذي كان يبعد عن جدار القبلة بمسافة كافية لركوع الإمام، وما كان قد اتخذه النبي صلى الله عليه وسلم من لوحة رخامية في جدار القبلة مثبت بها وتد كان صلى الله عليه وسلم يتكئ عليها عند وعظه لرفاقه والمؤمنين، أو ما أتخذه في الصحراء من حربة أو عنزة سترا له ولتحديد اتجاه القبلة[xix].

وعليه كخلاصة فإن كلمة محراب قد تحولت بعد الإسلام إلى مصطلح يعبر عن مفهوم شكل معماري داخل المسجد لتحديد اتجاه القبلة نحو مكّة المكرمة[xx]، وهو المكان حيث يقف الإمام لإمامة جموع المصلين، وهذه العلامة المميزة سواء أكانت حجارة أو وتدا أو رمحا أو رمزا في الفضاء في عهده صلى الله عليه وسلم كان الهدف منها تدريب المسلمين وإطلاعهم على الاستخدام الصحيح لاتجاه القبلة[xxi]، ومن الناحية المعمارية الهندسية فإن المحراب يتكون عادة من ثلاث عناصر أساسية، وهي عقد الفتحة، العمودان المتوجان اللذان يكتنفاه، والفراغ المحصور بينهما، والذي قد يكون مسطحا أو مجوفا على شكل حنية[xxii] ذات مسقط مقوس أو مضلع.

ثانيا: ظهور المحراب في العمارة الإسلامية:

يكاد يتفق جميع العلماء على أنّ عنصر المحراب بشكله المعروف حاليا لم يكن موجودا لا في عهده ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا في عهد خلفائه الراشدين، رغم ذلك ظلت إشكالية الظهور الأول لهذا العنصر المعماري في العمارة الإسلامية محل نقاشات لا تنتهي ومجالا لإصدار عديد النظريات والآراء، والتي تصب أيضا وفي كثير الأحيان ضمن نقاش رئيسي حول الأصول المعمارية للمحراب، وإذا ما صرفنا النظر عن الشكل فإنه يمكننا القول بأن وجود المحراب كرمز لتحديد اتجاه القبلة قد كان منذ عهده ـ صلى الله عليه وسلم، حتى إنه لا يمكننا حصر الروايات التي تتحدث عن تلك الإشارة التي اتخذها صلى الله عليه و سلم، و التي يمكن اعتبارها مقابلة للمحراب بمفهومه اللاحق.

وحسب رأي فريد شافعي، وإذا ما أعتبر لفظ قبلة مرادفا لمحراب، وحسب عدد من الروايات والأحاديث فقد وجد نوع من العلامة، بل وذهب إلى احتمال وجود المحراب المجوف أو المخلق على حد تعبيره في هيئة بسيطة لتعيين جدار القبلة، والتي كانت نتيجة لبناء هذا الجدار أولا باللبن، وما يفرضه ذلك من سمك كبير للجدار عكس بناء المحراب والذي كان من الحجر، وبالتالي أقل سمكا، ومنه كان التجويف نتيجة للفرق بين السمكيين وذلك منذ السنة الهجرية الثانية، أي منذ تحويل القبلة نحو الكعبة المشرفة[xxiii]، وكان ذلك على يد الرسول صلى الله عليه وسلّم وأكمل صحابه الكرام ذلك في مسجد قباء خارج أسوار المدينة[xxiv]، ويواصل شافعي في إطار نقده لأراء مجموعة من المستشرقين حول رأيهم في الأصل المعماري للمحراب المجوف والتي سنسردها لاحقا أن هذا التجويف قد ازداد عمقا مع الزمن بالتماشي وأعمال الهدم والتوسعة التي كان يشهدها المسجد، خاصة في جهة جدار القبلة، إلى أن صار بشكل مجوف واضح في أثناء إصلاحات الخليفة عثمان ـ رضي الله عنه ـ سنة 24هـ، أي في أثناء جعل الظلات على الجوانب الأربعة للمسجد[xxv]، غير أن رأي شافعي هذا يقابل في كثير الأحيان بالتشكيك، على اعتبار أن المعاني التي أعطاها لبعض العبارات التي وردت في النصوص التاريخية غير دقيق في تفسير بعض منتقديه، على غرار عبارة **"وجعلوا عضادتيه من الحجارة"** والتي فسّرها على أنها محراب مجوف بينما الأغلب أنها تعني عضّادتي الباب لا غير[xxvi].

وقد أرجعه البعض إلى عهد الخليفة أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ بين السنة 11 و 13هـ، كما نسب أحيانا إلى الخليفة عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ العام 24هـ[xxvii]، ورغم التناقض الذي جاء في روايته نورد حديث إبن بطوطة حين ينسب استحداث المحراب إلى الخليفة عثمان رضي الله عنه "...**وجعل له ـ أي المسجد النبوي الشريف ـ سواري حجارة مثبتة بأعمدة الحديد والرصاص وسقفه بالساج ووضع له محرابا**[xxviii]".

إن اتفاق معظم الآراء حول أن المحراب المجوف الأول كان متأخرا عن عهده صلى الله عليه وسلم وخلال القرن الهجري الأول لم يمنع أن تتعارض مع بعضها حول زمن ومكان ظهوره الأول، فهناك من يرى بأن ذلك كان في مسجد القيروان أيام عقبة إبن نافع (50-55هـ/ 670-675م)[xxix]، ويتزعم هذا الرأي الأستاذ أحمد فكري مستشهدا بما يعتبره حجّة قوية والمتمثلة في أن المؤرخين قد أجمعوا على أن عقبة بن نافع قد خطّ مسجده في القيروان العام 50هـ وأوضح مكان القبلة فيه حيث أقام محرابه، هذا الأخير ضلّ عبر الزمن يحظى بتقديس وإجلال خاصين من الناس، فلم يجرؤ أي منهم على مسّه بسوء، حتى مع الرغبة الشديدة للحكام الأغالبة في هدمه لم يحصل ذلك وقوبلوا بمعارضة شديدة ونصحوا بجعله بين حائطين، كما أنّ المحراب قد ضلّ كما وصفه البكري حيث يمكن رؤيته عبر خروم المحراب الجديد، فيظهر جدارا منحنيا يشبه التجويف في جدار القبلة ومنه فإن

الحائط بالتجويف كان قائمين قبل أن يضاف عليها اللوحات الرخامية في عهد زيادة الله تفاديا للمساس بقدسية المكان، وكان الشكل المقوس الذي اتخذته فتحة المحراب متماشيا وشكل عقود المسجد النصف دائرية[xxx]، لكن نتائج أبحاث فكري الأثرية لا تتوافق وما وصلت إليه أبحاث كريزول والتي أيدتها أبحاث وحفريات أخرى وأفضت إلى أن هذا المحراب متأخر عن هذه الفترة[xxxi].

وإن كانت الآراء التي تتحدث عن ولاية مسلمة ابن مخلد على مصر (53هـ/673م) في جامع عمرو بن العاص أو أيام مروان بن الحكم في المسجد النبوي تصنّف على أنها ضعيفة، فهناك الرأي الذي تزعمه كريزول والذي يتحدث عن كون المحراب الأول هو ذلك المسطح الموجود أسفل قبة الصخرة (72هـ/ 691م)[xxxii]، وذلك فقط لكونه محرابا مسطحا أي بدائيا[xxxiii]، لكن هذه النظرية دحضت أثريا خاصة وأنّ الأسلوب الزخرفي على هذا المحراب يعود إلى الطراز الذي شاع أوائل العهد العباسي[xxxiv]، كما أنه هناك من يتحدث عن جامع عمرو بن العاص أيام ولاية عمر بن عبد العزيز (79هـ/ 698م)، ومن يورد المسجد الأموي بدمشق على عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك (68هـ/ 708م)[xxxv].

غير أنه يبدوا شبه مؤكدا حسب عدد من النصوص التاريخية الواضحة وذات المصداقية العالية أن عمر بن عبد العزيز هو أول من أدخل المحراب المجوف سنة (90هـ/708م) على عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك (88ـ91هـ/707ـ710م)، عندما كان والي الأخير على المدينة ومكة[xxxvi]، حيث أمره الخليفة بالزيادة في المسجد "**زد في المسجد ومن باعك فأعطه ثمنه ومن أبى فاهدم عليه وأعطه المال، فإن أبى أن يأخذه فاصرفه على الفقراء**" وأرسل إلى ملك الروم "**إنا نريد أن نعمل مسجد نبينا الأعظم صلى الله عليه وسلم فأعنا بعمال وفسيفساء ...وأول من أحدث الشرافات والمحراب عمر بن عبد العزيز**[xxxvii]"، كما يضيف ابن بطوطة قائلا عن من وضع المحراب أولا "**إن مروان أول من بنى المحراب، وقيل عمر بن عبد العزيز في خلافة الوليد،...وكان الوليد قد بعث إلى ملك الروم: أريد أن أبني مسجد نبينا صلى الله عليه وسلم فأعني فيه، فبعث له الفعلة وثمانين ألف مثقال من الذهب**[xxxviii]..."، فيما يمكن اعتبار رواية السمهودي من الروايات ذات المصداقية العالية، و جاء فيها: " **أسند يحيى عن عبد المهيد إبن عباس عن أبيه قال: مات عثمان و ليس في المسجد شرفات ولا محراب، فأول من أحدث المحراب و الشرفات عمر بن عبد العزيز**[xxxix]..."، والجدير بالذكر أن مجوع الروايات السابقة كان أيضا السند الأكثر اعتمادا من طرف عدد من المستشرقين في تحديدهم للأصول المعمارية للمحراب في العمارة الاسلامية كما سيأتي لاحقا.

ثالثا: الموقف الفقهي من المحراب:

يعد موقف الفقهاء من استحداث عنصر المحراب في المساجد ذو أهمية بالغة، ليس فقط لأنه يحدد لنا الحكم الشرعي، خاصة وأنه مرتبط بواحدة من أهم ركائز الدين الإسلامي وهي الصلاة، ولكن أيضا لأن رأي هؤلاء قد أعتمد بصورة قوية ولدى عديد العلماء والباحثين في تحديد تاريخ والأصول المعمارية للمحراب ووظيفته فقد أضحت آراء الفقهاء بمثابة الوثيقة المعتمدة في محاولة الإجابة على كم الأسئلة الكبير المحيط بهذا الموضوع.

لقد قوبل المحراب خاصة في شقه المتعلق بكونه المكان الأغنى بالزخرفة أو حتى يمكن اعتباره عنصرا زخرفيا في حد ذاته بمعارضة على مستويات عدّة، وكثيرا ما أعتبر في رأي الفقهاء بدعة وحكمه من حكمها، وفي هذا الصدد يقول السمهودي" **ولم يكن بالمسجد الشريف محراب في عهده صلى الله عليه وسلم ولا في عهد الخلفاء بعده، وأن أول من أحدثه عمر بن عبد العزيز في عمارة الوليد، وقال عمر بن عبد العزيز بعد زخرفة المسجد لعمرو بن عثمان: بناؤنا أحسن أم بناؤكم؟ فقال له: بنيناه بناء المساجد وبنيتموه بناء الكنائس...وقال مالك فيما نقله عنه صاحب التبصرة: كره الناس ما فعل في قبلة مسجد المدينة من التزاويق لأنه يشغل الناس في صلاتهم، وأرى أن يزال كل ما يشغل الناس عن الصلاة**[xl] ...".

كما جاء الحديث الوارد في مخطوط "**إعلام الأريب بحدوث بدعة المحاريب**" لصاحبه جلال الدين السيوطي: " **إتّقوا هذه المذابح...لا تزال هذه الأمة ـ أو قال أمتي ـ بخير ما لم يتخذوا في مساجدهم مذابح كمذابح النصارى**[xli]**...**"، وقد أطنب أحمد فكري في نقده لكلام السيوطي واعتبر روايته مرفوضة علميا ومستنكرة تاريخيا[xlii] مع العلم أن حديث فكري عن الموضوع يدخل غالبا في إطار النقاش الدائر خاصة مع المستشرقين حول الأصول المعمارية للمحراب، ونقده لما جاء في مخطوط السيوطي هو امتداد لنقده لهم لاعتمادهم الكبير عليه في إثبات آرائهم، ومهما يكن فإن تمحيص ما جاء في المخطوط وأحاديث معارضة أخرى قد جعل الكثيرين يستنتجون أنّ المعارضة والحديث لم يكونا منصبّان على المحراب كعنصر معماري في حدّ ذاته وإنّما على ما يمكن أن يحمله هذا الأخير من زخارف وبهرجة، وما يؤديه ذلك من إلهاء عن الصلاة وتشبه بمذبح الكنيسة الغني بالزخارف[xliii]، حيث أن الموقف من الموضوع الأخير أي الزخرفة في المساجد كان واضحا في عديد الأحاديث ولنصوص الفقهية، فعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " **لا تقوم السّاعة حتى يتباهى الناس في المساجد**" (أخرجه الترمذي و صححه ابن خزيمة)[xliv].

و جاء في موضوع زخرفة المساجد عن رياض القاسمين "**ولا بأس بأن ينقش المسجد بالجص والساج وماء الذهب من مال نفسه، والصرف إلى المساكن أفضل، لأن مسجد النبي صلى الله عليه وسلم كان من جريد النخل، والنقش من مال المسجد لا يجوز، لأنه تضييع، قيل لا ينبغي أن يتكلف في دقائق النقش وقيل إن كان بديعا بحيث يشتغل به قلب المصلي يكره، وإلا فلا،**

وقيل إن قلّ لا يكره وإن كثر يكره وقيل يكره في المحراب دون السقف والمؤخر، وقيل يجوز النقش على المسجد دون النقر والتجصيص حسن لأنه يحكم البناء،...اللإستصناع في محراب المسجد من المتولي النجار في خشب بقدر معلوم وعمل معلوم و صناعة معلومة لا يصح، لأن الناس لم تتعارف الإستصناع فيه، وكذا الأبواب والسلالم والسرد ولو كان بشراء الخشب بكذا ثم العمل فيه لم يصح[xlv]".

رابعا: الأصول المعمارية للمحراب:

يعد هذا الموضوع من أكثر الإشكاليات إثارة للجدل في الدراسات الأثرية العلمية والتي يمتد النقاش حولها بداية من التعريف اللغوي لكلمة "محراب" ووصولا إلى وظيفة المحراب وحتى بناء المحراب وشكله المعماري وما يحمله من زخارف، فكل ذو رأي في الموضع يتلمس من خلال كل ذلك حجة ليثبت بها ما جاء به ويمكن أن نختزل أطراف هذا النقاش والاختلاف في فريقين رئيسيين، الأول مستشرق يزعم بحتمية اقتباس عنصر المحراب من حيث الشكل وربما حتى الوظيفة عن هياكل دينية أخرى سابقة للإسلام، وفريق آخر يرى أن ما جاء به الأول يفتقد إلى العلمية والإقناع وأن المحراب هو إبداع إسلامي خالص شكلا ووظيفة بغض النظر عن السبب الذي أتخذ لأجله.

يرى بعض المستشرقون من أثريين ومؤرخي الفن أن للمحراب بالعمارة الاسلامية في الأساس أصلان معماريان اثنان وهما محراب الكنيسة المسيحية (abside)[xlvi] أو الكوة البوذية، وعدا عدم تقديمهم لشرح عقائدي مناسب فإن هذان العنصران يعدان غريبان عن المسلمين الأوائل وغير ضروريان للممارسات الدينية الإسلامية لدرجة أن المحراب لم يتبنى أبدا من طرفهم، لكن من جهة ثانية فالأغلب أن أهل جزيرة العرب قد عرفوا بطريقة أو بأخرى هذه الممارسات الدينية السابقة للإسلام من يهودية ومسيحية، وبذلك فإن استعمالهم للمحراب قد لا يعدوا أن يكون مجرد محافظة على تقاليد قديمة لكن مع التعديل للتماشى والعقيدة الجديدة[xlvii]، فيذكر العالم جون سوفاجيه.J sauvaget أن المحراب قد أستعير عن الكنيسة القبطية لأسباب معمارية، رغم أنه شخصيا يرى هذا السبب غير كاف من ناحية تفسير رمزية المحراب ومعاني الكلمة لغويا، ولا حتى من حيث الإيضاح الكافي للعلاقة الشكلية أو الوظيفية بين العنصرين والتي قد تبرر هذه الاستعارة[xlviii]، ويضيف نفس المرجع، أنه من حيث اشتقاق كلمة محراب، كونها عنت في الديانة النصرانية القديمة جزء من القصر ينعزل فيه الأمير، وأحيانا الكوة حيث يوضع التمثال، وهي بذلك لم تعني المذبح أو محراب الكنيسة، ثم إن معانيها المتعددة في القرآن التي سبق ذكرها لم تعن ذلك، لكنه يقترح في إطار إيجاد ترجمة للكلمة تغطي كل المعاني ربط كلمة محراب مع الأشكال الهندسية المعمارية المستعملة في العصور القديمة والتي تحوم حول محفر نصف دائري ومرتفع يكفي لإقامة مذبح

أو لوضع تمثال فقط حسب الضرورة الطقائسية، وهو معنى يرى أنه لا يتعارض مع معنى كلمة محراب في الإسلام، والذي هو عبارة عن كوة نصف دائرية أيضا، وهنا فالإسلام الذي اقتبس هذا العنصر عن الكنيسة حسب تلميحه لم يضف سوى فارق جديد على مستوى المعاني التي حوتها الكلمة قديما[xlix]، أي أنها صارت تعني مكان وقوف الإمام لإمامة المصلين.

لقد شكّل مخطوط **"إعلام الأريب بحدوث بدعة المحاريب"** للسيوطي السند الأساسي لعديد المستشرقين في بناء نظرية استعارة المحراب عن الكنيسة، والذي تعرضنا لنقد الأستاذ فكري له سابقا[l]، وشكلت رواية السمهودي والتي يتحدث فيها عن أمر الوليد واليه على المدينة عمر بن عبد العزيز بهدم المسجد النبوي الشريف وإعادة بنائه، وعن إرسال ملك الروم أموالا وفسيفساء ورخام وأربعين قبطيا للقيام بالأشغال إحدى البراهين التي لجأ إليها كثير المستشرقين على غرار كريزويل، الذي نسب بناء أول محراب مجوف في المسجد للأقباط خاصة مع وجود روايات تتحدث عن عملهم في مقدمة المسجد أي على جدار القبلة، لكن هذا يصطدم مع ما جاء في باقي رواية السمهودي حيث يقول: **"...لما وصل ـ عمر بن عبد العزيز ـ إلى جدار القبلة عند هدمه دعا مشيخة من أهل المدينة من قريش والأمصار والعرب والموالي فقال لهم احضروا بنيان قبلتكم لا تقولوا غيرها عمر فجعل لا ينزع حجرا إلا وضع مكانها أخرى**[li]"، حيث فسّر البعض هذا الحديث الأخير على أنّ المحراب كان موجودا قبل وصول الأقباط[lii].

فيما يقدم شافعي حجّة أخرى لنقد هذا الرأي، فيرى أن محراب الجدار الجنوبي لقبّة الصخرة المجوف كان قد شيد سنة 72هـ/ 692م، تاريخ بناء الجدار الذي بقي دون أي تجديدات، إذ يرى أنه لا يمكن حفر تجويف كالمحراب بالجدار القائم لأنه سينهار[liii]، لكن التجارب المعمارية الميدانية أثبتت إمكانية القيام بذلك الحفر دون أن ينهار الجدار[liv]، كما أن السند المعتمد عادة (السمهودي) يحمل ثغرات أشار لها حتى المعتمدون عليه، حيث يذكر أن إمبراطور الروم أرسل الأقباط، بينما الأكيد أن مصر كانت خلال هذه الفترة قد دخلت تحت الحكم الإسلامي منذ حوالي سبعين سنة، وعليه يرجّح أنّ استعمال كلمة الأقباط جاء للدلالة على أصل العمّال الذين عملوا بجدار القبلة على أنهم من أصل مصري قبطي، وليس بالضرورة المذهب القبطي[lv].

وإن كان أحمد فكري يتفق مع رأي أغلب علماء الآثار حول عدم دخول المحراب في عمارة المساجد الأولى فإنّه وفي إطار دعم نظريته حول محراب جامع القيروان التي سبق الحديث عنها لا يوافق على فكرة أنّ هذا العنصر قد أشتق عن الكنائس، فزيادة على أنّ السيوطي صاحب رواية تشبيه المحراب في المسجد بمذبح الكنيسة قد عاش في زمن متأخر، وهو القرن الثامن هجري ولم يذكر عن أوائل رواة الحديث ولا عن أوائل المؤرخين المسلمين، فإن ما جاء عن السمهودي يحمل بعض الخلل، من حيث التضارب في عدد العمال وجنسياتهم، ومن حيث عدم منطقية الاستنتاجات التي

بنيت عليها، فلا يكفي وجود عمّال أجانب ليعملوا في المسجد وذلك تحت إشراف مسلم إسمه"صالح بن كيسان" ليغيروا من نظامه، خاصة وأنّ الأمر يتعلق بعنصر بالغ الأهمية كالمحراب وزيادة على اعتماد فكري التضارب الذي حصل حول أول محراب في الإسلام في نقده فقد استند أيضا على الفروق المعمارية والهندسية بين العنصرين، فمحراب الكنيسة فناء كبير في صدرها يتجاوز نطاقها ويتسع لأكثر من المنضدة حيث توضع معدات المراسيم، فهو مساحته واسعة يمكن التنقل فيه دون عائق، بينما المحراب في المسجد لا يعدوا أن يكون مجرد إشارة لتحديد القبلة عبر تجويف في جدارها لا يتسع لغير ركوع الإمام وسجوده وجلوسه والاختلاف كبير بين الوظيفتين[lvi]، وهنا نجد أنّ محراب الكنيسة ليس ضروريا فقد خلت عديدها منه، فالمهم هو المذبح، وهو المنضدة التي توضع عليها أدوات الطقوس من صلبان ومباخر وأجراس وكؤوس وكتب، والذي يقف القس ومساعدوه خلفه في مواجهة الناس للقيام بالطقوس، والقس لا يمكن أن يكون نظيرا للإمام هنا لأنه في الواقع الوحيد الذي يصّلي أما البقية فيتابعون ما يعمل ويستجيبون لإشارات محددة تعطى لهم من طرفه[lvii].

كما أنّ شكل الحنية النصف دائري هو الشكل المعماري الأكثر استعمالا منذ القدم في عمارة حضارات البحر الأبيض المتوسط حسب الشافعي الذي يتفق مع فكري في نقده لما جاء عن السيوطي بل ويذهب أبعد من ذلك حينما يشكك في نسب المخطوط لهذا الأخير إضافة إلى الفروق الوظيفية بين المذبح في الكنيسة والمحراب في العمارة الإسلامية[lviii].

ويتفق عديد العلماء على أن فكرة إدخال المحراب إلى العمارة الإسلامية لم يكن اقتباسا عن أي عنصر معماري كان[lix]، بل هو نتيجة لمسار تطور طبيعي لعنصر معماري وظيفي منذ ظهوره السنة الهجرية الثانية في مسجد قباء كعلامة على جدار القبلة والتي أخذت هيأتها المعروفة مع زيادة التأنق في بناء المساجد بالمدن والأمصار الإسلامية منذ منتصف القرن الهجري الأول[lx]، كما أن مجموعة هامة من الأثريين المستشرقين المتأخرين قد فهموا التصور الذي يرى بأن المحراب قد نشأ بشكله المجوف نشأة إسلامية خالصة فرضتها ظروف وقوف الإمام منفردا في مساحة صف كامل متقدما المصلين فجعل المحراب للإمام ليتحول إلى ضرورة وظيفية[lxi].

ويمكن أن نلخص ما جاء عن معارضي نسب المحراب في العمارة الإسلامية إلى الاقتباس عن الكنيسة في عدد من الثغرات منها تعدد التواريخ المطروحة للظهور الأول للمحراب في الإسلام، والتي بلغ عددها خمسة، كما أن الوليد بن عبد الملك لم يكن في حاجة إلى الروم والأقباط والفسيفساء التي يزعم أن ملك الروم قد أرسلها، ثم إن الصنّاع الروم والأقباط الذين اشتركوا في بناء المسجد إن صحت الرواية وإن كان هذا المسجد ـ أي المسجد النبوي ـ هو من حمل المحراب المجوف الأول،

وهو احتمال من خمسة فرضيات يدينون بالإسلام وظهور المحراب ليس تحت تأثير مسيحي، كما أن الحديث عن عمل الأقباط في مقدمة المسجد يحتمل الكثير من الشكوك[lxii].

وإن كان سوفاجيه يصّر على أنّ المحراب قد أخذ عن محراب الكنيسة كنتيجة لدراسته لمكان ودور المحراب البالغ الشبه شكلا بقاعة الاستماع في محراب الكنيسة، خاصة في المحاريب ذات الفتحة الكبيرة، كما أنه يرى أن دراسته الأثرية على المحراب الأموي بالمسجد النبوي الشريف قد بينت وجود عناصر ذات خصائص أجنبية والغير مفسرة في الاستعمال الحالي للمحراب مما يوجد بالنسبة له المبررات الكاملة لقبول فكرة أن المحراب في العمارة الإسلامية هو نسخة مصغرة لمحراب الكنيسة، والهدف كان مزدوجا، الحصول على القدسية التي يحظى بها بالكنيسة في المسجد من جهة، والحفاظ قدر الإمكان على الشكل الأولّي للمسجد على عهده صلى الله عليه وسلم من جهة أخرى[lxiii]، غير أن مؤرخ الفن المختص في الفن الإسلامي اليكساندرا بابادوبولو papadopoulA. لا يوافق هذا الطرح مقدّما أسباب تتعلق بالرمزية التي يعتقد أن المحراب قد أتى ليحققها كما سنرى لاحقا، حيث أن الرأي السابق يصطدم بكون أن المسجد النبوي قد كان أيضا منزلا للرسول صلى الله عليه وسلم، كما أن المحراب حسبه لم يحمل أي دور عملي أو سياسي عكس المنبر مثلا، وهذا ما جعله يرجع وجود المحراب في الأساس إلى الرمز لحضور الرسول صلى الله عليه وسلم في المكان، والزخرفة التي خصصت للمحراب والرواق العمودي عليه تدل على تلك الرمزية، فهو يرى أن الاقتباس الذي كان من حيث الرمزية قد جاء على أيدي المهندسين الأجانب الذين كانوا هاهنا هم فقط من يعرف الكوة ومدلولاتها الرمزية في الفنون الكلاسيكية القديمة، والأمر حسبه كان بكل بساطة أنه قد طلب من هؤلاء إبراز وتمييز مكان الرسول صلى الله عليه وسلم في حياته بمسجده فمثل كما هو معروف في الفنون اليونانية الهيلينستية والرومانية المسيحية والبيزنطية مصدر هؤلاء العمال، حيث يوضع تمثال التكريم في كوة، وهنا حذف التمثال لتعارضه والشريعة الإسلامية وبقيت الكوة لترمز إليه [lxiv]، ويدعم هذا الرأي بما هو معروف عن أن المسلمين الأوائل قد استعملوا العديد من الأشكال الكلاسيكية كالقوس فوق عمودان على بعض من نقودهم، وعليه فبعد هذا الاقتباس خضع شكل المحراب لاكتساب خصائصه المميزة ومظهره الموحد الذي سيشتهر به في العمارة الإسلامية كشكل جمالي تشريفي خاص وبالنظر لتحريم الدين الإسلامي للتماثيل فقد أستبدل بالتجويف في الجدار وتحول منه إلى عنصر معماري[lxv].

إن إرجاع وجود المحراب في العمارة الإسلامية إلى اقتباس عن الديانة البوذية لا يبدوا منطقيا على اعتبار أنّ العلاقات بين الهند معقل الديانة والعالم الإسلامي كانت متأخرة، بالضبط مثلما لا يمكن إرجاعه إلى الكوة القبطية أو الكنيس اليهودي حيث نظير المحراب هنا يكون أصغر حجما ومرتفعا عن مستوى الأرضية[lxvi]، كما أنّه يجب الإشارة إلى أنّ الحنايا المجوفة لهياكل الكنائس لم تكن

ابتكارا قبطيا أو مسيحيا أو بيزنطيا، بل هي عناصر وثنية أسرف الرومان في تزيينها وعملها في عمائرهم من معابد وحمامات ومساكن وأنّ التأثير قد حصل في الإتجاهين فنجد مثلا زخارف بشكل المحاريب الإسلامية في كنائس بالشام[lxvii]، والأكيد أنه قد وجدت كثير المباني شكّلت أجزاؤها الهامة بشكل حنية كبيرة أو صغيرة قبل الإسلام والمسيحية ولا يوجد حرج لاستعمالها في المساجد[lxviii]، ومهما يكن الأصل الذي ورد منه هذا العنصر المعماري فإنّه يعدّ محطة هامة في مسار الإنتاج المعماري والفني الإسلامي عموما وقد حقق أهدافا عملية ضمنت له الاستمرارية بغض النظر عن الأسباب والدوافع وراء ابتكاره أو اقتباسه.

خامسا- وظيفة المحراب:

يعد المحراب العنصر المعماري الوحيد الذي نجده دائما ومنذ ظهوره في جميع المساجد، كبيرة كانت أم صغيرة وفي جميع الأماكن التي يشيد فيها هذا النوع من العمائر والذي يدعوا للحيرة أن هذا العنصر الضروري في كل مسجد لم يكن موجودا في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، وجميع المساجد التي بنيت قبل إعادة بناء مسجد المدينة من طرف الخليفة الأموي الوليد (707-709م) على الأغلب، مما يجرّنا للتساؤل حول سبب هذا الإبداع، وكيفية تحوله في فترة وجيزة إلى ضرورة، فإذا كانت المئذنة ليست بالضرورية وخلت منها كثير المساجد الصغيرة، وكان المنبر خاص فقط بالمساجد التي فيها صلاة الجمعة بالعواصم السياسية أين يوجد الخليفة أو ممثله السياسي أو الديني[lxix]، فماذا عن المحراب ؟

يستمر الجدل الكبير المحيط بالمحراب هنا أيضا، خاصة وأن محاولة تحديد وظيفة للمحراب كثيرا ما كان يهدف إلى الربط بينه وبين **الأصول المعمارية** لهذا العنصر المعماري، فبينما يرى أغلب الأثريين المسلمين بأن وجود عنصر المحراب ارتبط بضرورة وظيفية عملية بحتة، وهذا يعزز رأيهم في أنّ العنصر يعد ابتكارا إسلاميا، يرى الفريق الآخر من العلماء ذي الأغلبية المستشرقة أنّ الوظيفة العملية المزعومة لأن يؤدّيها المحراب غير كافية لتبرير حضوره بهذه القوة وهذا الشكل وأنّ المحراب تجاوز المسائل العملية ليصل إلى أبعاد جمالية.

1-وظيفة عملية:

للوهلة الأولى يبدوا من تتبع تطور وجود المحراب بالمسجد أنّ دوره لا يتجاوز تحديد جهة القبلة للمصلين حيث أنه كان في بعض الأحيان عبارة عن علامة أو إشارة مختلفة اللون عن باقي جدار القبلة ليقف الإمام أمامها قبل أن يتم الإقتداء بستّة عمر بن عبد العزيز في المحراب المجوف في جل المساجد تقريبا، ولهذا التجويف غرض آخر وهو اختصار الحيز الذي يشغله الإمام منفردا قبالة جدار القبلة وتمكين جموع أخرى من المصلين من احتلاله[lxx]، ولا يوافق أحمد فكري على الدور

الأول، إذ أنه لو كان المحراب للدلالة على جدار القبلة فلم يكن من الضروري أن يكون مجوفا، ويكفي أن يكون بشكل أو بقطعة أخرى أكثر بساطة ليقوم بهذه الوظيفة، فيرى أن المحراب مجرد فكرة عملية بسيطة لتوفير المكان الذي كان سيشغله الإمام في غياب التجويف والذي كان يتسع لمأتي مصلي في القيروان مثلا، ويبرّر الشكل المقوس الغالب على فتحة المحراب بالتناسق المنشود في البناء مع عقود قاعة الصلاة[lxxi]، فيما يرفض البعض الآخر الشروح الشائعة لدور المحراب، خاصة التي تقول أن دور المحراب هو الإشارة إلى اتجاه القبلة لعدّة أسباب، حيث أنه تاريخيا لم يكن المحراب موجودا في أي من المساجد الأولى ليقوم بهذا الدور، كما أن المسجد ككتلة بأكمله موجه إلى القبلة، والمحراب غير مرئي من أجزاء واسعة في المسجد وحجمه المتواضع لا يتناسب والوظيفة المتوقعة له[lxxii]، فصار المسجد كليا يحدد الاتجاه وهو بمثابة البوصلة المتجهة نحو الكعبة الشريفة[lxxiii]، ثمّ أن ما كان يحدد اتجاها لقبلة في مسجده صلى الله عليه وسلم هو الجدار الشمالي عندما كانت القبلة نحو بيت المقدس، ثم الجنوبي عند التحول نحو مكة المكرمة، لذلك نجد أن المصلين يقفون بالمقابل له ولهذا حمل اسم جدار القبلة الذي يكون طويلا ليستوعب في مقابله أكبر عدد من المصلين، فهو ما خلّفه الرسول صلى الله عليه وسلم كموجه للمسلمين كون العنصر المعماري الذي له القدرة على إيضاح وجهة لا يمكن أن يكون إلا جدارا موازيا لها[lxxiv]، ويحصل هذا الرأي على كثير الدعم من حيث يتفق آخرون في أنّ هدف المحراب بهذا التقعر لم يكن تحديد القبلة بل تحديد مكان الإمام فهناك مذاهب تمنع وقوف الإمام في تجويف المحراب وهذا ما نجده في البلدان التي يسود فيها المذهب الحنفي كتركيا وباكستان حيث تكون المحاريب قليلة العمق[lxxv].

يرى سوفاجيه أن الاستعمال الحالي المعروف للمحراب كمحدد لاتجاه القبلة للمصلين هو في الحقيقة ليس الدور الذي أقيم المحراب من أجله، ففي مسجد بمساحة هائلة تتسع لمآت المصلين وكلما كانت القاعة كبيرة تعددت الدعائم وكبرت فصارت حاجبة للمحراب لا يمكن أن يكون فيه تجويف بهذه الأبعاد الصغيرة لتحديد الاتجاه، فمن الناحية العملية الموجه هو الجدار الموازي للقبلة فإذا كان توجيهه خاطئ أخطأ المصلون القبلة وحتى توجيه المحراب يكون خاطئا، ولربما هذا الإعتقاد الخاطئ أدى إلى تزويد بعض المساجد بعديد المحاريب، ليتحول هذا الإستعمال إلى ضرورة طقائسية شاملة، لكن رغم ذلك لا يمكننا أن نمنح للمحراب دور زخرفي وفقط[lxxvi]، ويمكن الاستنتاج أن دور المحراب ليس تحديد الإتجاه بالإعتماد على بدائه هندسية رياضية حيث من هذا الجانب لا تكفي نقطة واحدة لتحديد إتجاه، بل يجب وجود مستقيم يمر على الأقل بنقطتي توجيه وهو ما يعرف بالخط المحوري إن وجد، ثم إن المصلين يتوجهون في صلاتهم نحو الجدار لا المحراب، إضافة إلى أن كلمة محراب لم تعني أبدا الاتجاه في أي من مصادرها سواء اللغات السامية أو القرآن الكريم، وكلمتا المحراب والقبلة يحملان معاني مختلفة في المعاجم العربية[lxxvii].

ولهذا التقعر المحفور في الجدار وظيفة تقنية أخرى معروفة، فهي تجمع صوت الإمام لينعكس مضاعفا ويذهب أبعد، فربما أراد المهندس الأول بهذا التقعر مضاعفة صوت الإمام ببساطة على غرار ما تفعله القباب[lxxviii]، حيث أن المحراب بشكله المعهود يمكن أن يقوم بوظيفة مكبر للصوت لما يتلوه الإمام القائم به، كما يمكن أن تتعدد المحاريب لغاية وظيفية أخرى حيث يخصص لكل مذهب محرابه على غرار ما هو موجود بالمسجد الجامع بدمشق (87-96هـ/706-771) [lxxix].

2- وظيفة زخرفية:

رغم الموقف الفقهي إتجاه الزخرفة في المساجد والذي أمتد أثره ليشمل موقفه من المحراب الذي صار على هذا المستوى يعد فعلا زخرفيا كما رأينا سابقا إلى أن الزخرفة في المحراب قد سايرت التطور الذي كان يطرأ على هذا العنصر عبر مختلف الفترات[lxxx]، فقد ضلّ المحراب المكان الأغنى بالزخرفة في المسجد حيث امتدت التزيين ليشمل الأجزاء المحيطة به في الجدار وهذا ما قد يبرز بأن المحراب شيء رئيسي ومميز، وقد أخذ المحراب يتطور على مستوى التفاصيل الزخرفية أو الإنشائية[lxxxi]، فبعدما كانت المحاريب أو ما كان يقوم مقامها على عهده صلى الله عليه وسلم وصحابته بسيطة لا تمثل إلاّ محددا لموقع الإمام ولا تملك أية زخرفة، ظهرت خلال النصف الثاني من القرن الهجري الأول الزخارف التزيينية بالمحراب وتطورت من حيث أنها شملت مختلف المواد فاستعملت الحجارة والآجر والرخام والبلاطات الخزفية الملونة والجص والفسيفساء أو المواضيع الزخرفية، فنجد الزخارف النباتية المتداخلة والهندسية الشبكية والكتابية بخطوط الكوفي والنسخي والثلث التي تكون في العادة محيطة بالمحراب تحمل نصوص قرآنية أو أحاديث أو عبارات دينية أخرى، وقد استعملت كل هذه الأنواع الزخرفية لإغناء السطح عموما والمحراب خاصة، منفردة أو مختلطة بصورة تظهر تنوع وامتداد الفن الإسلامي إلى أقصى الحدود[lxxxii].

إن كل هذه الزخرفة التي حضي بها المحراب باستعمال أثمن المواد أحيانا كالذهب والرخام الملون وغيرها من المواد والأشكال الخاصة كالمشكاة تطرح تساؤلا حول هذه العناية الخاصة والذي دفع بالكثير إلى اللجوء للرمزية كمجال قد يمنح الكثير من التفسيرات[lxxxiii]، كما أن تحول شكل الكوة من الملاءة التي كان يعرف عليها سابقا إلى رمز ديني جديد لحضور الرسول صلى الله عليه وسلّم ورسالته وكلام الله الممثل في القرآن الكريم قد أدى إلى تحولات على المستوى الجمالي، فصار التجويف رئيسيا وجماليا بصورة تلقائية ليتسابق الجميع في جعله أكثر جمالا عبر زخرفته بسخاء، ومنه فقد أثّر الاتجاه الرمزي على جمالية هذا العنصر، وهذه الجمالية كانت بدورها خزّانا لعديد التعبيرات الرمزية[lxxxiv].

3-وظيفة رمزية:

تركز الإضاءة والزخرفة في أغلب المساجد على المحراب، حيث أيضا تتقاطع الأروقة الرئيسية، والقبة المتقدمة المزخرفة بثراء الجالبة لأنظار المصلين مما يوحي بخصوصية وأهمية المحراب[lxxxv]، فقد أخذ المحراب أهمية رمزية خاصة بالنظر لعلاقته مع المركز الديني للإسلام، مكّة المكرمة، ففي الظاهر هذه الكوة هي مكان خاص للإمام الذي يقود الصلاة وموجهة إلى القبلة، لكن من الناحية الخفية قد يرمز هذا الشكل لباب رمزي يؤدي إلى الله تعالى، فالمحراب يأخذ مظهر الباب[lxxxvi]، ويرى بعض مؤرخي الفن الإسلامي أنّ هذا الشكل الشعائري الموجود في عنصر معماري لاحق كالمحراب هو مركز للرمزية الخاصة والغنية والعميقة، وهذا طبيعي حسبهم بالنظر للرابط الموجود بين الفنون الدينية والمقدسة والمذهب الباطني الرمزي، وعليه فإن حتى العناوين المسيحية التي تكون قد ظهرت بالمحراب واتخذت مبررا للحكم على **الأصول المعمارية** قد كانت لأغراض رمزية بحتة[lxxxvii].

فيما فسّر وجود رواق أوسط عمودي على المحراب وأكثر زخرفة وعرضا وارتفاعا ومزود بقبة أمام المحراب في المسجد النبوي، والذي شهد تطورا في المساجد اللاحقة على أنه مستمد من الطابع المعماري للكنيسة من قبل البعض فإن البعض الآخر يعارض هذا الحكم، فكون الرواق قد أتى مائلا عن الوسط إلى اليسار، أي أنه لم يكن مركزيا على غرار المحراب، الأمر الذي جعل من قاعة الصلاة غير متناظرة وأظهر الارتباط المراد إبرازه بين الرواق المركزي والمحراب والغرض من ذلك الحفاظ على قاعة الصلاة على عهده صلى الله عليه وسلم، فكأنما كان هناك سحب إشعاعي لمكانه صلى الله عليه وسلم في مسجده الأول إلى غاية جدار القبلة في المسجد الجديد، والغرض من كل هذا إذا ـالمحراب والرواق المركزي ـ هو الرمز إلى مكان صلاته صلى الله عليه وسلم[lxxxviii]، والرمزية هنا تمس المحراب شكلا من حيث تخطيطه الهندسي وعناصره المعمارية المكونة، كما تعني أيضا محتواه الزخرفي والفني، فمن الناحية الشكلية يعطي مظهر المحراب انطباع الباب أو إطاره، وقد أستخدم شكل الباب المحفوف بقبة والمزخرف منذ القدم، حيث نجده في قبّة العرش بالمقصورة الملكية عند الرومان ومنها انتقل إلى اليهودية والمسيحية[lxxxix]، والباب هنا يرمز إلى مرور المؤمن بعون من الله تعالى نحو الجنة تحت تأثير القرآن الكريم، كما أنه هناك علاقة بين مركزية المحراب في الجدار وتوجيهه الدقيق نحو مكة المكرمة وشكله الشبيه بالباب كرمزية ثانوية، فالمعلم كله كبوصلة مجازية تؤشر إلى قطب الإسلام والأسطوانة المركزية المتمثلة في المحراب تعد إبرة للبوصلة، كما أن هذا التجويف هو امتداد للقدسية التي تحملها القبة، والتي نزلت عبر المحراب وصولا إلى مكانه صلى الله عليه وسلم فينتج عن ذلك حتما الشكل الأسطواني الذي طبع نصفه على الجدار[xc].

إن شكل الكوة الذي تعددت الآراء حول أصوله قد عرف منذ القدم بقدسيته ورمزيته، الرمزية بالنسبة للمحراب مستمدة من القرآن الكريم، فوجود القبة المحدبة المتوجة ترمز إلى السماء

من حيث تنزل الكلمات الإلهية عبر الأعمدة وصولا إلى القاعدة وهي الأرض، كما أن الشكل العام المجوف يرمز إلى الكهف أين نزل الوحي، والكهف نفسه يرمز إلى القلب حيث يجب أن يوجد الله وكلماته، وهي أهداف رمزية حققها شكل المحراب وقد عرفتها التقاليد الشرقية السابقة للإسلام[xci]، وإن كانت القيمة التذكارية المتعلقة بتخليد ذكرى النبي صلى الله عليه وسلم كإمام أول للمسلمين لا تكفي وحدها لتبرير العناية والزخرفة التي حضي بها المحراب، فقد اكتسب على المستوى الديني اتجاه عقائدي ورمزي ضروري تحت تأثير القرآن الكريم، وهذا ما قد يفسر نقل شكله على مواد ومنتجات عدّة كالحجارة والزرابي مثلا[xcii]، فحسب البعض في هذا الجانب نجد لشكل المحراب التجريدي تجسيدا لمعاني في آيات من سورة النور، التي تبين وجود الله تعالى في العالم وفي قلب الإنسان بما يشبه المصباح الموضوع في المشكاة المتمثلة في الكوة والتالي المحراب، كما نسجل تعليق المصباح داخل المشكاة[xciii] قال تعالى: ﴿**اللهُ نُورُ السَمَواتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاة فِيهَا مِصْبَاح، المِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُجَاجَةِ كَأَنَهَا كَوْكَبٌ دُرِيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٌ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَةٍ وَلاَ غَرْبِيَةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَو لَمْ تَمْسَسْهُ نَار نُوْر عَلَى نُوْرْ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالْ لِلنَاسْ واللهُ بِكُلِ شَيءٍ عَلِيمْ**﴾ (سورة النور، الآية 35).

ومما يلاحظ أن عددا من المحاريب القديمة قد توجت بقبة بشكل صدفة بحرية أو المحارة، وهو الشكل الموجود في الفنون القديمة وقد أستعمل عند المسلمين لتحقيق أهداف رمزية روحية، فالصدفة تحوي اللؤلؤة وهي إحدى الرموز الإسلامية لفعل سماوي رباني فقط وهو الخلق، فحسب رواية عن النبي صلى الله عليه وسلم أن العالم قد خلق من لؤلؤة بيضاء، فصارت الصدفة البحرية أين تصنع اللؤلؤة في المحراب بمثابة المكان أو القلب المستقبل لكلمات الله تعالى[xciv]، كما يرمز شكل المحارة أيضا للخلق، وكثيرا ما حمل عقد المحراب الآيات التي تدعوا إلى إعمار بيوت الله بالإضافة إلى الآية: قال تعالى "**كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيهَا زَكَرِيَا المِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا..**" (آل عمران، الآية 37) فقد يكون تسجيل الآية بشكل دارج في المحراب محاولة لتجسيد معاني المحراب في القرآن الكريم[xcv]، وهناك من يرى أن المساجد التي لم تحترم الرمزية التي يجب أن يحملها المحراب قد تعرضت لظاهرة فنية تعرف بالرفض، وهذا ما حصل مع محراب جامع قرطبة حيث كانت الكوة عميقة لدرجة تحولها إلى غرفة في محاولة لتحقيق هدف رمزي آخر عن ما جاء في إحدى معاني المحراب في القرآن الكريم كغرفة أو مكان مقدس فلم يستمر هذا النموذج من هذه الناحية لتناقضه مع الشكل الرمزي ودلالته المتفق عليها، والأمر ينطبق على تعدد المحاريب في المسجد الواحد، ورغم أنّ المحراب الأوسط يكون الأبرز والأكبر إلى أنه لم يتبنى بصورة واسعة لتناقضه ورمز المحراب لوجود النبي صلى الله عليه وسلم في المسجد[xcvi].

وقد عزّزت رمزية المحراب بالقبة التي توجد أمامه، والتي كانت في المسجد النبوي من خشب، ومنه وجدت أكبر أو أصغر، أبسط وأعقد في تخطيطها، من خشب، آجر أو حجر، وصارت تزخرف بغزارة، فعززت رمزية المحراب بموقعها في الرواق الأوسط[xcvii]، وفي المقابل هناك من يرى أن ما يحمله المحراب من عناصر زخرفية ليس إلاّ أعمال فنية لا تحمل أي إشارات رمزية، وعلى العكس من الآراء السابقة فآيات القرآن والأحاديث تملك إشارات دينية واضحة ومباشرة وغير رمزية، لأن هذا لا يتماشى والدين الإسلامي، كما أن وجود محراب في العمارة الإسلامية ليس له أي علاقة مع الأشكال المشابهة السابقة ولا حتى مع رمزيتها، ففي النهاية العناصر المعمارية تشكل إرث إنساني قابل للتأقلم مع الهدف الإنشائي المعماري عموما[xcviii]، والحديث عن **أصول معمارية** أجنبية له لا يبدوا منطقيا في ظل اعتبار أن هذا الشكل هو ارث إنساني استعمل في جل الحضارات.

سادسا: أنواع وطرز المحاريب:

عرف عنصر المحراب منذ ظهوره في العمارة الإسلامية تطورا شمل نواحيه المتعددة من حيث شكله العام وتخطيطه وزخرفته ومن حيث المواد المستعملة في إنشائه بل حتى أبعاده وهو الأمر الذي أفضى في النهاية إلى وجود أنواع وطرز عديدة من المحاريب،فمن ناحية **التخطيط الهندسي** للمحراب يمكن القول أنه قد انطلق عن ما يعرف بالمحراب **الأصيل** أو **المجوف** والمبتكر في المسجد النبوي الشريف، حيث يتكون أساسا من قبّة نصفية تمتد حتى الأرض عبر نصف الأسطوانة وعقد المحراب أو الفتحة، الذي يكون عادة نصف دائري وأحيانا منكسر قليلا أو متجاوزا والأعمدة المدمجة التي يرتكز عليها العقد، هذا النموذج الذي نجده في الشرق الأوسط، أي من العراق إلى تونس مرورا بالسعودية وسوريا ولبنان وفلسطين ومصر، حيث أن شكل الكوة لم يتغير في هذه البلدان ومنها انتقل إلى مناطق أخرى، فاستعمل أيضا في تركيا في أوقات مبكرة وفي المغرب حيث اختفت المساجد الأولى من المحتمل أن تكون محاريبها قد خضعت أيضا لهذا الطراز، لأن المحاريب الأندلسية ـ المغربية المتأخرة رغم أنها أتت مجوفة لكنها حملت تطورات أخرى ظهرت مع إنشاء محراب قرطبة، واستمر هذا المظهر الذي حمله المحراب أقل أو أكثر ارتفاعا أو عرضا أو تزيينا لمدة قرنين أو ثلاثة قرون على الأقل انطلاقا من ظهوره الأول[xcix].

و كان بناء هذه **المحاريب المجوفة** الأول بسيطا حيث أقدم نموذج لها هو ذلك الموجود في الضلع الجنوبي للمثمن الخارجي لقبّة الصخرة (72هـ/691م)، ثم تطّور التجويف مع تطور بناء المساجد في الفترات الإسلامية اللاحقة فازداد عمق الحنية ذات المسقط الدائري أو المستطيل[c] الشبيهة بالطيقان المجوفة الصماء والتي تغور في الحائط ابتداء من الأرض وترتفع فوق القامة قليلا، وتتنوع هذه المحاريب المجوفة بين **الأول** الذي مسقطه نصف دائري ومقطعه الشاقولي عقد قد يكون منكسر، حدوي، كامل أو متجاوز...إلى ما هنالك من عقود، وتعلوه قبيبة نصف دائرية أو قبو

طولي قليل العمق، يأخذ شكل نصف أسطوانة ومقوس المقطع، و **الثاني** الذي مسقطه مستطيل يشكل عرضه عمق الجدار، ويأخذ شكل متوازي المستطيلات يغور في الجدار كالأول وتعلوه أيضا نصف قبيبة، أما **الثالث** فهو كالسابق لكن دون قبة نصفية، كما أنه يدمج داخل مستطيل آخر أكبر عرضا وارتفاعا، و**الرابع** هو الذي يعد تطورا للنوع الثالث، حيث يتداخل محرابان أو أكثر وتحيط الأقواس المختلفة بالأطر المستطيلة، كما أن المحاريب قد تعلوا وتتسع وتعمق لتشابه المداخل الكبيرة، وتقارب مساحتها مقاسات الغرفة كما هو في محراب جامع قرطبة (169هـ/785م)[ci].

وظهر **المحراب المسطح** أي الغير مجوف الذي هو عبارة عن لوحة مسطحة مستطيلة حفر عليها شكل المحراب المحاط بإطار زخرفي وآيات قرآنية، وأقدم المحاريب المسطحة هو الموجود في المغارة تحت قبّة الصخرة (72هـ/691م) وكذلك في جامع ابن طولون(265هـ/879م)، وهي الظاهرة الشائعة خلال العصرين الفاطمي(358-567هـ/969-1171م) والمملوكي(648-923هـ/1250-1517م)[cii]، واستعملت خاصة في الأضرحة وكذلك في بعض المساجد خلفا للمحاريب المجوفة، حيث يجسد عليها في الغالب شكل الحنية المجوفة ولكن رسما بالألوان على الخزف أو بالحفر على الحجر أو تنزيلا على الرخام أو نقشا على الخشب[ciii]، هذا النوع من **المحاريب أحادية الحجر أو الكتلة (monolithes)** يصنع منفصلا عن المسجد ثم يوضع به، قد يتخذ من الحجر ومن الرخام في الفترات الأولى ورغم أن هذه المحاريب مسطحة إلى أنّها تظهر جميعا شكل الكوة المحفورة أو منقوشة كمؤشر على أن المحراب مهما كان نوعه يجب أن يحمل التعبير عن الكوة، وهناك محاريب صنعت على انفصال لدواع تختلف بين أن صانعها يكون مؤهل أكثر من المكلف ببناء الجدار أو لأنها صنعت بمواد ثمينة، فنجد محاريب متحركة من خشب، والآجر في إيران وآسيا الوسطى، والجص المنقوش، ممّا يعزّز نظرية أنّها لم تصنع لتحديد اتّجاه القبلة[civ]، وينقض الكثير من الآراء حول **الأصول المعمارية** لهذا العنصر المعماري.

ومن بين المظاهر التي رافقت تطور المحراب في الإسلام هي ظاهرة **تعدد المحاريب**، فبعدما كان المحراب واحد في الفترات الإسلامية الأولى، اختلف الأمر مع ظهور المذاهب الأربعة، الحنفي والشافعي والمالكي والحنبلي حيث يذكر ابن فضل العمري عن المسجد الأموي: "**وفي قبلته ثلاثة أروقة وفي وسطها القبة المعروفة بالنسر وقد عقدت على المحراب الكبير الذي به خطيب الجامع وامة الناس، وفي شرقي المقصورة المحراب المعروف بمحراب الصحابة وهو محراب المسلمين الأول وبه تصلي المالكية الآن، ثم يليه باب الزيارة ويليه من الغرب محراب تصلي به الحنابلة، ولكل من هذه المحاريب الثلاثة إمام ومؤذن وقد وقف على كل محراب منها وقف ومدرّس وجماعة من الفقهاء من المذاهب الثلاثة، كل طائفة في محرابها**[cv] "وتعددت المحاريب أيضا بالمسجد النبوي الشريف[cvi]،

ومن أمثلة هذا أيضا ما نجده في جامع إبن طولون (265هـ/879م)، حيث تصطف خمسة محاريب يتوسطها المحراب الرئيسي وهو الوحيد المجوف، وبلغت ثلاثة عشر محرابا بالأزهر(359-361هـ/969-971)، وهناك من يرى أن هذه الظاهرة التي وجدت من قبل في المسجد الأموي بدمشق كان سببها هو تعدد المذاهب الأمر الذي أكده ابن كثير في حديثه عن عمل المحاريب الأربعة لهذا المسجد، بينما هناك رأي آخر يعتقد أن هذه المحاريب التي عادة ما تضاف خلال عمليات الترميم والتجديد كان الغرض منها تذكاري، أي أنها تقوم مقام اللوح التذكاري خاصة وأنها تأتي مسطحة[cvii].

ومن حيث **المواد الإنشائية**، فنجد محاريب حجرية، وخشبية متنقلة، مثل ما نجده بجامع الأزهر(359-361هـ/969-971) وفي مشهد السيدة نفيسة (527هـ/1133م)، وهناك محاريب جصية صنعت في العصر الفاطمي فنرى مثال لها في جامع الأزهر، كما نجد الرخام المستعمل أيضا في التكسية[cviii]، وانطلاقا من القرنين 13 و14م في إيران أستعمل الخزف الأزرق الصلب مما حول شكل المحراب الذي أصبح تدريجيا قائم الزوايا مستطيل المقطع لأجل تسهيل التكسية بالمربعات الخزفية، بينما التقبيب الأصلي للتجويف قد أعيد تشكيله تقريبا سواء بمنحنيات مثلثة أو بالنوازل أو ما يعرف بالمقرنسات[cix]، كما يعد محراب **جامع قرطبة** (169هـ/785م) وما تبعه من **محاريب مغربية** بروزا لنوع جديد من المحاريب ذات المساقط المضلعة والعقود الحدوية[cx]، وكل هذه التطورات التي سبق الحديث عنها وما افضت اليه من أنواع وطرز تبرز الكثير من الابداع والخصوصية التي تميز بها الفنان المسلم اتجاه هذا العنصر وتدفع الى إعادة النظر في الآراء الشائعة حول **الأصول المعمارية للمحراب في العمارة الإسلامية**.

الخاتمة:

يتضح جليا من خلال العرض المختصر الذي قدمناه خلال هذا البحث مدى الاختلاف في الآراء الذي يردّ إلى نقص في السندات المكتوبة، أي في المعلومات التي يقدمها المؤرخون الأوائل بهذا الخصوص بالإضافة إلى أسباب متعلقة بالموضوعية أو الخلفيات المسبقة وفي بعض الأحيان بطريقة فهم الموضوع، وعليه فإن حسم هذا الجدال يستدعي إعادة دراسة وفهم الإطار والمعاني الصحيحة للكلمة في النصوص القديمة بما في ذلك الإسلامية منها، كما يحتاج الجانب المتعلق بالظهور الأول للمحراب في العمارة الإسلامية إلى إعادة دراسة الأدلة التاريخية والأثرية كاستغلال التطور التقني في مجال الجس الأثري والذي قد يعطي مستقبلا إجابات حاسمة حول هذه النقطة مما سيسمح بالتقدم كثيرا في إطار حل الإشكالية الرئيسية حول الأصول المعمارية للمحراب.

كما أن النصوص الفقهية المتعلقة بالمحراب بحاجة للتعمق في فهمها والأغلب هنا أن الفقهاء الذين كرهوا المحراب قد استندوا على ما يحمله من زخارف أو تكلف، كما أن آراء بعض الأثريين الأوائل الدارسين للآثار الإسلامية والذين تحدثوا عن أصول مسيحية تبدوا غير موضوعية بالإضافة لثبوت ارتكاب هؤلاء عديد الأخطاء من حيث إعادة تصور المخططات مثلا، حتى أن عددا هاما من الأثريين والمستشرقين المتأخرين يعارضون هذا الرأي تماما، كما يبدوا جليا أن الاستعمال الأول للمحراب كان لغرض وظيفي وهذا ما يتماشى وطبيعة الإسلام الأولى، فمن حيث الفكرة إذا يعد المحراب ابتكار إسلامي خالص ومن غير المنطقي أبدا أن نقول بأن المسلمين قد اتخذوا المحراب فقط لتأثرهم بأشكال معمارية وجدت في عمائر أخرى.

وبخصوص أسباب ظهور المحراب في هيأة تجويف فقد يكون نتيجة التأثر بموروثات سابقة وارد والتي لا يمكن نسبها لثقافة معينة بل هي إرث إنساني مشترك ظهر واستمر منذ القدم، إذا فالتأثر إن وجد كان بالشكل لا بالفكرة أو المضمون، بينما من الواضح أن الزخرفة الغنية التي أصبح المحراب يحضى بها قد جاءت لاحقا وهي تتماشى والتطور الذي عرفته العمارة الإسلامية مع توفر الإمكانات باتساع الفتوحات الإسلامية وضمها لأقاليم عديدة ومختلفة، فيما قد يكون اكتساب المحراب لدلائل رمزية متأخرا وهي تمس الفعل الزخرفي أكثر مما تمس شكل المحراب أو وظيفته.

إن التطور الذي عرفه عنصر المحراب عبر مختلف الفترات والكيانات السياسية وفي مختلف الأقاليم الجغرافية والثقافية يبين بدرجة كبيرة مدى أصالة هذا العنصر ومدى ارتباطه الوثيق بالعمارة الدينية وبالتحديد بالمساجد ويجعلنا نتأكد أكثر فأكثر من أن نشأته كما تطوره ارتبطت في الأساس بما أريد له من وظائف ليقوم بها، ويبقى هذا الموضوع مجالا خصبا للبحوث خاصة من الناحية الأثرية باعتبار علم الآثار من أكثر العلوم الإنسانية اعتمادا على الوسائل العلمية والتقنية مما يمنحه جانبا كبيرا من الموضوعية الضرورية لتناول مثل هذه المواضيع.

الهوامش

[i]- حسين مؤنس، المساجد، عن عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة و الفنون والآداب، الكويت، 1978، ص 67، 68.

[ii]- غيلان حمود غيلان، محاريب صنعاء حتى نهاية القرن 12ه/18م، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة اليمنية، صنعاء، 1425ه/2004م، ص 71، 72.

[iii]- G. Féhérvàri, Mihrab, Encyclopédie de l'islam, t7, G-P Maisonneuve la rose S.A, Paris, /1993ه, p7.

[iv]- طه الوالي، المساجد في الاسلام، دار العلم للملايين، بيروت، 1409ه/1988م، ص 214، 215.

[v]- نفسه، ص 215.

[vi]- غيلان حمود غيلان، المرجع السابق، ص 72.

[vii]- الوالي طه، المرجع السابق، ص 216.

[viii]- مؤنس حسين، المرجع السابق، ص 67.

[ix]- الوالي طه، المرجع السابق، ص 216.

[x]- جمال الدين ابن منظور، لسان العرب، المادة محراب، المجلد الأول، دار صادر، بيروت، 1968م، ص 296.

[xi]- نفسه، ص 296.

[xii]- نفسه، ص 296.

[xiii]- محب الدين الزبيدي، تاج العروس، ج 1، المادة محراب،المطبعة الخيرية، القاهرة، 1406ه/ 1988، ص 205، 207،206.

[xiv]- نفسه، ص 217.

[xv]- عاصم محمد رزق، المرجع السابق، ص 256.

[xvi]- جاء في لسان العرب لابن منظور أن القبلة هي الجهة، ومن أين قبلتك بمعنى من أين جهتك، وهي أيضا الوجهة، انظر: جمال الدين إبن منظور ، لسان العرب، المادة قبلة، المصدر السابق، ص 350، إصطلاحا: القبلة هو المعنى الذي أستحدث في الإسلام، وهو الكعبة، وبالنسبة إلى المسجد هي محرابه أو الجدار المتجه نحو مكة المكرمة، أي الجهة التي يجب على المصلي الاتجاه نحوها أو بطلت صلاته، ومن تعذر عليه ذلك كالمحارب والمسافر لا حرج عليه إن تحرّاها، أنظر طه الوالي، المرجع السابق، ص 221.

[xvii]- O. Grabar, La formation de l'art islamique, traduit de l'anglais par Thoraval (Y), champs Flammarion, Paris, 2000, p 169.

[xviii]- ميسّاناغاسبري، المعمار الإسلامي في ليبيا، تعريب حسنين علي الصادق، الناشر مصطفى العجيلي، طرابلس، 1393ه/ 1973م، ص 103.

[xix]- نور الدين السمهودي ، وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى (844- 911ه/1438-1505م)، حققه وفصّله عبد الحميد محمد، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د ت، ص 216، 264، 272، حيث كانت العقيدة الإسلامية الوحيدة التي تفرض على أتباعها اتجاها معينا أثناء الصلاة، واتخاذ هذه القبلة لم يكن من باب قدسية الحجر الأسود الموجود بالكعبة الشريفة، بل كونها رمزا لوحدة الجماعة، لأن الله موجود في كل مكان لقوله تعالى "**ولله المَشرِقُ و المَغرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا وُجُوهَكُم فثَمَّ وَجْهُ الله إنَّ الله وَاسِعٌ عَلِيم**" (سورة

البقرة، الآية 115) وتحويلها نحو الكعبة هو عودة إلى الوجهة الواحدة لدين الله الواحد في دين التوحيد، انظر: طه الوالي ، المرجع السابق، ص 221، 222.

[xx]- وبحسب الموقع يختلف الاتجاه الجغرافي للقبلة من منطقة إلى أخرى، فنجده مثلا نحو الجنوب في الشام والأردن والجنوب الشرقي في مصر وفي المغرب العربي نحو الشرق، وقد أدى هذا إلى وقوع ارتباك في تحديد الاتجاه الصحيح، كما هو في مسجد القيروان (50هـ/670م) وواسط ببغداد (84هـ/703م) وأبي دلف (245هـ/860م) انظر: غيلان حمود غيلان، المرجع السابق، ص 45.

[xxi]- ولأجل حل المشاكل المرتبطة بتحديد اتجاه القبلة الصحيح ذهب المسلمون إلى دراسة علم الفلك والهندسة خاصة المثلثات، فأصبحت علما قائما بذاته أفضى إلى وضع قوانين رياضية دقيقة على غرار الظل والظل تماس وحساب المساحات، وطوروا آلة لتساعدهم على تحديد الاتجاهات عرفت بالإسطرلاب، وحرصوا عبر مؤلفاتهم على توضيح كيفية عمله، ووضعوا أصولا وقواعد لهذا الفن، بل أضافوا عليه الربع المجيب والمقنطر واستعملوا البوصلة، وأشتهر عديد من العلماء المسلمين في هذا المجال عبر التاريخ ، انظر: أم الخير مطروح، تطور المحراب في عمارة المغرب الأوسط خلال العصر الإسلامي، منذ بداية الفتح الإسلامي حتى عصر الزيانيين، دراسة تاريخية وأثرية، رسالة لنيل شهادة الماجستير في الآثار الإسلامية، جامعة الجزائر، السنة الدراسية 1993/ 1994م، ص 17، والإسطرلاب هو آلة فلكية قديمة أطلق العرب عليها ذات الصفائح، و هو نموذج ثنائي للقبة السماوية مكون من عدة أجزاء، يظهر كيف تبدوا السماء في مكان محدد ووقت محدد وارتفاع الكواكب والأجرام، مما يسمح بتحديد مواقع النجوم الثابتة ومنه الاتجاهات: انظر أيضا: عاصم محمد رزق، معجم مصطلحات العمارة و الفنون الإسلامية، مكتبة مدبولي، القاهرة، 2000، ص 16، 17، أنظر كذلك: غيلان حمود غيلان، المرجع السابق، ص 45.

[xxii]- G. Féhérvàri, Op.cit, p 7.

[xxiii]- فريد شافعي، العمارة العربية في مصر الإسلامية، المجلد الأول، عصر الولاة، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، 1970، ص 598، 599، وكانت القبلة في أول الأمر موجهة نحو بيت المقدس وظلّت كذلك حوالي السنة والنصف من الزمن قبل أن يستجيب الله تعالى لدعاء نبيه الكريم بتحويل اتجاه القبلة نحو الكعبة الشريفة، وفي هذا الصدد ذكر السمهودي844-911هـ/1439-1504م) "روينا في البخاري عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يصلي نحو بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهرا وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب أن يوجه إلى الكعبة، فأنزل الله تعالى: "قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فولّ وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولّوا وجوهكم شطره..." (سورة البقرة، الآية 114)، فتوجه نحو الكعبة وقال السفهاء من الناس وهم اليهود " ما ولاّهم عن قبلتهم التي كانوا عليها "قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم" (سورة البقرة، الأية 142)، فصلى مع النبي صلى الله عليه وسلم رجل، ثم خرج بعدما صلى فمر على قوم من الأنصار في صلاة العصر نحو بيت المقدس فقال: هو يشهد أنه صلّى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه توجه نحو الكعبة، فتحرّف القوم حتى توجهوا نحو الكعبة" ويضيف "...وقال إبن النجار: وصلى النبي صلى الله عليه وسلم فيه ـ أي في مسجده ـ إلى بيت المقدس ستة عشر شهرا ثم أمر بالتحول إلى الكعبة، فأقام رهطا على زوايا المسجد ليعدّل القبلة فأتى جبريل عليه السلام فقال: يا رسول الله ضع القبلة وأنت تنظر إلى الكعبة، ثم قال بيده هكذا، فأماط كلّ جبل بينه وبينها، فوضع القبلة وينظر إلى الكعبة لا يحول دون نظره شيئ، فلما فرغ قال جبريل عليه السلام هكذا، فأعاد الجبال والشجر والأشياء على حالها، وصارت قبلته إلى الميزاب..، أنظر: نور الدين السمهودي ، المصدر السابق ص 359- 366.

[xxiv]- فريد شافعي، العمارة العربية الإسلامية، ماضيها، حاضرها ومستقبلها، شركة الطباعة العربية السعودية، الرياض، 1982، ص 151.

[xxv]- فريد شافعي، العمارة العربية في مصر، المرجع السابق، ص 599.

[xxvi]- مصطفى صالح لمعي، المدينة المنورة، تطورها العمراني وتراثها المعماري، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1981، ص 75.

[xxvii]- غيلان حمود غيلان، المرجع السابق، ص 52.

[xxviii]- محمد إبراهيم إبن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار المعروف برحلة إبن بطوطة، ج 1، تحقيق و تقديم الكتابي علي، دمشق، 1956، ص 69.

[xxix]- غالب عبد الرحيم، موسوعة العمارة الإسلامية، جروس ـ برس، بيروت، 1988، ص 353.

[xxx]- أحمد فكري، المسجد الجامع بالقيروان، مطبعة المعارف ومكتبتها، القاهرة، د ت، ص 57، 58، 59.

[xxxi]- مصطفى صالح لمعي، المرجع السابق، ص 75.

[xxxii]- غالب عبد الرحيم، المرجع السابق، ص 353.

[xxxiii]- كريزويل ك ، الآثار الإسلامية الأولى، نقله إلى العربية عبله عبد الهادي، إستخرج نصوصه وعلق عليه سبانو أحمد غسان، دار قتيبة، دمشق، 1404هـ/ 1984م، ص 416.

[xxxiv]- شافعي فريد، العمارة العربية في مصر الإسلامية، المرجع السابق، ص 606، 606.

[xxxv]- عبد الرحيم غالب، المرجع السابق، ص 353.

[xxxvi]- مصطفى صالح لمعي، المرجع السابق، ص 75.

[xxxvii]- الحنبلي أبي بكر، تحفة الراكع و الساجد بأحكام المساجد، إدارة مساجد محافظة القيروانية، الكويت، 1425هـ/ 2004م، ص 239، 240. وللمزيد حول زيادة الوليد بن عبد الملك بن مروان وما سبقها من إصلاحات وزيادات أنظر قطب الدين الحنفي، تاريخ المدينة، تحقيق محمد زينهم ومحمد عرب، مكتبة الثقافة الدينية للنشر والتوزيع، القاهرة، 1998، ص 95، 108 ـ 113.

[xxxviii]- محمد إبراهيم ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 69.

[xxxix]- نور الدين السمهودي، المصدر السابق، ص 525.

[xl]- نفسه، ص 377.

[xli]- للاطلاع على رسالة السيوطي كاملة انظر: جلال الدين السيوطي، اعلام الأريب بحدوث بدعة المحاريب، ط2، طار الصحابة للتراث بطنطا، 1411ه/1990، ص 14-20.

[xlii]- أحمدفكري ،بدعة المحاريب، مجلة الكاتب المصري، ج 4، العدد 14، القاهرة، 1946، 306، 307.

[xliii]- غيلان حمود غيلان، المرجع السابق، ص 54.

[xliv]- الحافظ ابن حجر العسقلاني، بلوغ المرام من أدلة الأحكام، تحقيق أحمد إبراهيم زهوة، دار الكتاب العربي، بيروت، 1424هـ/ 2004، ص 45، 46.

[xlv]- القاضي كامي محمد بن إبراهيم الأدرنوي الحنفي أفندي، رياض القاسمين أو فقه العمران الإسلامي، دراسة و تحقيق مصطفى أحمد بن حموش، دار البشائر للطباعة و النشر و التوزيع، دمشق، 1421هـ/ 1723م، ص 335.

[xlvi]- نسمي abside في العمارة باللغة الفرنسية كل بروز أو امتداد لجزء من المخطط الداخلي لكتلة معمارية، والذي قد يكون نصف دائري أو متعدد الزوايا، بارزا أو غير بارز من الخارج، ويكون هذا الجزء في العادة مزود بسقف على هيأة قبّة نصفية أو بسقف مضاعف مدّور، وهو المعروف بالمحراب في الكنيسة المسيحية، أنظر:

O. Aurenche, Le dictionnaire illustré multilingue de l'architecture du proche orient ancien, maison de l'orient, Lyon, 2004, p 11.

[xlvii]-G. Féhérvàri, op.cit; p 7.

[xlviii] - J. Sauvaget, La Mosqueé omeyyade de Médine, étude sur les origines architecturales de la mosquée et de la basilique, Vanoest des édition d' art et d' histoire; paris, p 145.

[xlix] -IBID, P 145, 146.

[l]- أحمد فكري، بدعة المحاريب، المرجع السابق،، ص 306، 307.

[li]- نور الدين السمهودي، المصدر السابق، ص 139.

[lii]- غيلان حمود غيلان، المرجع السابق، ص 53.

[liii]- فريد شافعي، العمارة العربية الإسلامية، المرجع السابق، ص 151.

[liv]- مصطفى صالح لمعي، المرجع السابق، ص 74.

[lv]- نفسه، ص 73.

[lvi]- أحمد فكري، المسجد الجامع بالقيروان، المرجع السابق، ص 54، 55، 56.

[lvii]- حسين مؤنس، المرجع السابق، ص 68.

[lviii]- فريد شافعي، العمارة العربية في مصر، المرجع السابق، ص 601، 603.

[lix]- غيلان حمود غيلان، المرجع السابق، ص 53، 54.

[lx]- فريد شافعي، العمارة العربية في مصر، المرجع السابق، ص 611.

[lxi]- سعد زغلول عبد الحميد، العمارة و الفنون في دولة الإسلام، منشأة المعارف، الإسكندرية، د ت، ص 258.

[lxii]- فريد شافعي، العمارة العربية في مصر، المرجع السابق، ص 597.

[lxiii]- J. Sauvaget, Op.cit; p 148; 149.

[lxiv]- A. Papadopoulo, L'islam et l'art musulman, Citadelles et Mazenod, Paris, 2002, p 228, 229.

[lxv]- O. Grabar, op.cit, p 171.

[lxvi]- A. Papadopoulo, L' islam et l' art musulman, op.cit, p 230.

[lxvii]- فريد شافعي، العمارة العربية في مصر، المرجع السابق، ص 611، 616، 617، 619.

[lxviii]- مصطفى صالح لمعي، المرجع السابق، ص 74.

[lxix]- A. Papadopoulo, Introduction générale, le mihrab dans l'architecture et la religion musulmanes, actes du colloque international tenu a Paris en mai 1980, publies et pourvus d'une étude d'introduction générale, E, J, Brill, Netherlands, 1988, P 9.

[lxx]- طه الوالي، المرجع السابق، ص 232.

[lxxi]- أحمد فكري، المسجد الجامع بالقيروان، المرجع السابق، ص 58، 60.

[lxxii]- O. Grabar, op.cit, p 171.

[lxxiii] -A. Papadopoulo, le problème de mihrab, histoire de l'art, théologie esthétique, approches méthodologique, le mihrab; Op.cit, p 34.

[lxxiv]- A. Papadopoulo, Introduction générale, le mihrab....,Op.cit, p 9.

[lxxv]- A.M. Wafi, les mihrabs et leurs ornementation décoratives, le mihrab, Op.cit ; p 71; 72.

[lxxvi]- J. Sauvaget, Op.cit, p 146.

[lxxvii]-L. Golvin, Le mihrab et sa éventuelle signification, le mihrab dans l'architecture et la religion musulmanes, Op.cit, P 54.

[lxxviii]-A.M. Wafi, Op.cit, P 72.

[lxxix]- عبد الرحيم غالب، المرجع السابق، ص 352.

[lxxx]- نفسه، ص 352.

[lxxxi]- A. Papadopoulo, L'islam et l'art ..., Op.cit, p 231.

[lxxxii]- A.M. Wafi, Op.cit, P 72, 73, 74.

[lxxxiii]-J. Sauvaget, Op.cit, p 149.

[lxxxiv]- A. Papadopoulo, L'islam et l'art ..., Op.cit, p 229.

[lxxxv]- L. Golvin, op.cit, p 54, 55.

[lxxxvi] - D. Clevenot, L'art islamique, Edition Scola, Paris, 1997, p 31.

[lxxxvii] - T. Burckhardt, L'art de l'islam, language et signification, Sindibad, Paris, p 134.

[lxxxviii]- A. Papadopoulo, L'islam et l'art ..., op.cit, p 228.

[lxxxix] - G. Féhérvàri, op.cit, p 7.

[xc]- A. Papadopoulo, L' islam et l'art ..., Op.cit, p 232.

[xci]- T. Burckhardt (), Op-cit, p 134.

[xcii]- O. Grabar, Op.cit, p 171.

[xciii]- T. Burckhardt, Op.cit, p 135.

[xciv]- T. Burckhardt, Op.cit, p 135.

[xcv]- سعد زغلول عبد الحميد ، المرجع السابق، ص 257.

[xcvi]- A. Papadopoulo, L'islam et l' art ..., Op-cit, p 230.

[xcvii]- IBID, p 232.

[xcviii]- A.M. Wafi, Op.cit, P 75.

[xcix]- A Papadopoulo, Typologie des Mihrab, le mihrab dans l'architecteur et la religion musulmanes, Op.cit, p 20.

[c]- محمد حسين جودي، العمارة العربية الإسلامية، إبتكاراتها وجماليتها، دار المسيرة للنشر و التوزيع و الطباعة، عمان، 1419هـ/ 1998م، ص 76.

[ci]- عبد الرحيم غالب، المرجع السابق، ص 351.

[cii]- محمد حسين جودي، المرجع السابق، ص 76.

[ciii]- عبد الرحيم غالب، المرجع السابق، ص 351.

[civ]- A. Papadopoulo, Typologie des Mihrab, Op.cit, p 21, 22.

[cv]- شهاب الدين العمري إبن فضل، مسالك الإبصار في ممالك الأمصار، نقلا عن الوالي طه، المرجع السابق، ص 232.

[cvi]- طه الوالي، المرجع السابق، ص 232، 233، و للمزيد حول محاريب المسجد النبوي بدمشق أنظر، علي الطنطاوي، الجامع الأموي في دمشق، وصف و تأريخ بقلم علي الطنطاوي، دار المنارة للنشر والتوزيع، جدّة، 1410هـ/ 1990م، ص 27. 55، 56.

[cvii]- سعاد ماهر، مساجد مصر و أولياؤها الصالحون، ج 1، مطابع الأهرام التجارية، القاهرة،1971، ص 149، 222.

[cviii]- مصطفى صالح لمعي، التراث المعماري الإسلامي في مصر، جامعة بيروت العربية، بيروت، 1975، ص 56.

[cix]- الأصح عن معاجم اللغة العربية هو مقرنسات عن مقرنصات، والتي قد تسمى بأسماء عدّة كالقمع الركني أو الحنية الركنية أو الدلايات وأيضا الخواصر المنشورية أو خلية النحل أو متوازيات السطوح المنسدلة، والتي تتضارب الآراء حول أصولها المعمارية التي غالبا ما تعزى إلى الحنايا الركنية في مناطق الإنتقال أسفل القبة، وقد إختلفت الآراء...أنظر ارزقي شرقي، مراجعة مفاهيم وآراء حول المقرنسات الإسلامية، مجلة دراسات تراثية، العدد 2، دار الملكية للطباعة والنشر والتوزيع والإعلام، الجزائر، 2008، ص 110، 113، 114، و تعد المقرنسات من جملة أخرى العنصر الزخرفي الأكثر تميزا في الزخرفة الإسلامية...، يأخذ مظهر التحجرات الكلسية في المغارات، والمقرنس الأكثر بساطة مكون من سبعة عناصر منشورية التي تجمع في هيأة تركيبة من مستطيل ومثلثان أحدهما قائم الزوايا والآخر متساوي الضلعين كل منهما على جانب، أنظر:

H. Martin, L' art musulman, Librairie d' art, Paris, p 16, 17, 18.

[cx]- A. Papadopoulo, Typologie des Mihrab, Op.cit, p 34.